الأب

للاستاذ فؤاد الشرقاوي المحامي

اعتلى المحاضر منصة الخطابة ، فدوت القاعة بعاصفة من التصفيق الحاد ثم هدأت بعد فترة ، فشخصت الابصار الى المحاضر الذي بسط اوراقه امامه وتنحنح قليلا ، ثم شرع يقرأ بصوت مهيب يتضوع جلالا ووقاراً : (دقت اجراس محطة حلب ايذاناً بتحرك القطار فاندفع الى العربة التي كنت اجلس فيها مع زميلي رجل غريب المظهر يخطو الى الثلاثين من عمره ، وكان يحمل بيديه لعبا مختلفة من التي يلهو بها الاطفال الصغار على ضفاف الأنهر وشواطيء البحار . وقد راعني من الرجل شدة اهتمامه بتلك اللعب ، حتى انه لم يكتم ريبته من موقفي ، فكان يرمقني بين الفينة والفينة بنظرات شزرة لاتخلو من تحد ، وحسبت في حينه ان الرجل يخشى على لعبه ويستوجس مني عدواناً مفاجئاً عليها . فاستثارني موقفه هذا ودفعني الفضول الى ايقاظ زميلي من نومه ، واسرت له بما هجس بخلدي تجاه تصرفات هذا الطارىء الغريب . فأخذ زميلي يرقبه ويتتبع انفعالات وجهه ، فلما احس منه بما احسست انا من قبل ، غلبت عليه الحيرة واقعدته الدهشة عن كل تفسير معقول لسلوك هذا الرجل . ولم يطل الحال بزميلي على هذا المنوال ، حتى عصفت بنفسه نزعة صبيانية ، فغافل الرجل واختلس منه احدى لعبه وليث ينتظر ، فانخرطت بدوري في هذه المشاكسة النزقة واختلست لعبة ثانية ، ولكني لم اكن لبقا في اختطافها فجلبت رعونتي انتباه الرجل ، وشاءت المصادفة ان يلمح اللعبة في يدي ، فانتفض فجأة كالليوة المفجوعة في صغارها ، وعاد الى لعبه يتفقدها واحدة واحدة ، فلما احس باختفاء لعبتين اعتراه هياج فظيع واخذ يرغي ويزبد واندفع نحوي بقوة وامسك بتلابيبي حتى انتزع لعبته من يدي بعنف وقسوة ، ثم تحول الى زميلي فانتزع منه اللعبة الثانية بنفس الاسلوب . وتراجع الى زاويته فتهالك على المقعد وراح يصوب الينا نظراته الحادة . وفي فترة عارضة غشيت صاحبنا اغفاءة عابرة ، فانتهزنا الفرصة لنعود الى محاولتنا الاولى ، وسرقنا اللعب من جديد وشعر بنا الرجل للمرة الثانية فانتزعها منا من جديد ، وعدنا فسرقناها للمرة الثالثة والرابعة والخامسة حتى انهكنا الرجل فبدأ يلين رويداً رويداً ، حتى تحول وعيده الى رجاء وانقلب تهديده الصارخ الى ضراعة ساذجة . ولم يقو اخيراً على مغالبة مشاكستنا المستمرة ، فراح يبكي وينشج كما يفعل الاطفال الصغار . واصابت دموعه مواقع حساسة من نفسي وعاطفتي ، فتغير موقفي وبدأت اشعر بانياب الندم وهي تنهش اعماقي فأورثني ذلك ألماً ممضاً واسلمني في لحظة خاطفة الى حزن دفين فجمدت في مكاني وكففت عن مداعباتي الثقيلة ، وبدأت اقنع زميلي بالكف عن ايلام الرجل اوالسخرية به . وكان القطار قد وصل بنا في تلك الآونة الى محطة بغداد ، فحزمنا حقائبنا وتأهبنا لمغادرة القطار ، ولشد ما كانت دهشتي عندما امسك الرجل بكتفي وخاطبني بنبرة مؤثرة :

— سامحكم الله .. ولكن حذار من العودة الى الشاطيء والبحر انتم واولادكم !

وترقرقت في عينه الدموع قبل ان يقول :

— .. لقد ذهبت الى البحر مع ولدي .. وعدت كما ترون ومعي لعبه فحسب !

وعندما بلغ المحاضر هذه المرحلة من القصة ، ارتفعت من المقاعد الخلفية في القاعة ، صرخة نسوية داويه ، اعقبها عويل ونشيج ، وعلى حين غرة لمح المستمعون سيدة في مقتبل العمر تتشح بالسواد ، تشق الصفوف وتندفع صوب المحاضر ، وتتهالك على قدميه ، ثم تخاطبه بضراعة وحرقة :

— اين هو الآن .. أين زوجي ياسيدي المحاضر ؟ لقد ألمت عنه في قصتك ، فدلني عليه .. دلني على مكانه ، وحسبي ان افقد ابني !

فامتقع لون المحاضر ، ووجم في مكانه برهة من الزمن